ولد لبيد فى أوائل القرن الأخير من العصر الجاهلى وبلغ الإسلام شيخًا مسنًا ودخل فيه وعاش فى ظله طويلاً إلى أن مات فى عام ٤٠ هـ (٦٦٠ م). ولا تعنينا تلك الفترة التى عاشها فى الإسلام لأنه اعتزل فيها الشعر، وقد اكتسب لبيد شهرة بين المسلمين عندما أثنى الرسول ﷺ على بعض شعره إذ روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: «ألا كل شئ ما خلا الله باطل».

وقد وضع ابن سلام لبيدا فى شعراء الطبقة الثالثة مع نابغة بنى جعدة وأبى ذؤيب الهذلى والشماخ، ويؤثر عن لبيد نفسه أنه وضع نفسه ثالث الملك الضليل (امرئ القيس) والغلام القتيل (طرفة). كما يؤثر عن النابغة أنه استنشده شعرا فأنشد بعض الشعر إلى أن بلغ انشاد المعلقة وإعجاب النابغة يزداد به إلى أن قال له: أنت أشعر العرب. كما يؤثر عن الفرزدق السجود عند سماع أحد أبيات المعلقة مستظرفا فى الثناء على شعر لبيد مقارنا سجدته هذه بسجدة القرآن مدعيًا أن الشعراء يعرفون للشعر سجدته.

ويعد لبيد فى جاهليته من فرسان بنى عامر المشهورين كما كان شاعرهم الأشهر، ويبقى سؤال عن سر اعتزاله الشعر فى الإسلام. ولا أتصور أن إجابته تدخل ضمن قضية ضعف الشعر فى العصر الإسلامى الأول وإنما الحقيقة أن شيخًا هرمًا يقارب المائة لا بد أن تهرب منه شياطين الشعر ولابد أن يتفرغ للعبادة والعمل الصالح والاستعداد لاستقبال آخرته.

وقال لبيد بن ربيعة العامرى :

(١) عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

(٢) فَمَدَافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوُحِيَّ سِلَامُهَا

(٣) دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ بَيْنِ أَنِيسِهَا حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا

عفت : زالت وانمحت (الفعل : عفا ـ يعفو) . محلها : المحل هو موضع الإقامة المؤقتة .
مقامها : عكس محلها . منى : غول . رجام : مواضع .
تأبد : توحش وخلا من الحياة .
مدافع : جمع مدفع ، وهى المسايل التى يندفع فيها الماء من المرتفعات نحو السفوح والسهول .
الريان : جبل أو مرتفع بعينه . عُرِّيَ : كُشِفَ .
رسم : أثر أو بقية أثر . ورسم الدار : ما بقى منها لم ينمح .
خلقا : بسبب الخلق أى القدم وطول العهد . الوُحِيّ : جمع وَحْى أى كتاب .
سلامها : السِّلام (جمع سَلَمَة) وهى الصخور . دمن : جمع دِمْنة وهى ما أسود من الآثار .
تجرم : تم وانقطع ومضى . أنيسها : ساكنها .
حجج : جمع حجة وهى السنة أو العام . حلالها وحرامها : شهورها الحلال والحرام .
زالت الديار بكل ما فيها من مضارب مؤقتة ودائمة وبكل من فيها من حالٍّ ومقيم ، تلك الديار الواقعة فى منى بين الغول والرجام حيث توحشت الحياة وفقدت أنسها .
وكما زالت الديار جفّت مياه مدافع الريان بعد أن كشف عنها كما تكشف الصخور عن الكتابة التى تتضمنها منقوشة عليها .
تلك الآثار مضت عليها سنوات كاملة بشهورها الحرام والحلال بعد أن هجرها أهلوها الذين كانوا أنسها .

(٤) رُزِقَتْ مَرَابِيعَ النُّجُومِ وَصَابَهَا وَدْقُ الرَّوَاعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُهَا

(٥) مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُدْجِنٍ وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِبٍ إِرْزَامُهَا

(٦) فَعَلَا فُرُوعُ الأَيْهَقَانِ وَأَطْفَلَتْ بِالْجَلْهَتَيْنِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا

مرابيع النجوم : أوائل المطر فى الربيع التى تؤدى إلى نجوم الخضرة والنباتات .
صابها : أصابها وأمطرها . ودق : المطر من السحاب القريب من الأرض .
الرواعد : السحائب المسببة للرعد .
الجود والرهام : الجود المطر الذى يرضى من ينتظره والرهام مثله لكنه أكثر لينا وأقل عنفا . سارية : من السرى ، وهى السحابة الممطرة ليلا .
غاد : يجىء فى وقت مبكر من الصباح . مدجن : مظلم للسماء .
عشية : مساء ، ويريد : سحابة تأتى عشية . إرزام : إرغاء الناقة ويريد هنا صوت الرعد .
علا : طال وارتفع . فروع : سيقان .
الأيهقان : الجرجير البرى تأكله الحيوانات والناس .
أطفلت : أنجبت أطفالا .
الجلهتين : هما جبهتا الوادى أو ما استقبلنا من حرفيه عند دخوله . ظباء : غزلان .
يبدو أن الشاعر هنا بعد أن ذكر الدمن التى تبقت من الديار بعد عفائها يدعو بعودة الحياة إليها أو يتصور هذه العودة ـ والنتيجة واحدة فى الحالتين ، لذا يمكن أن يكون الفعلان (رزقت وصابها) دعاء بأن ترزق وأن يغمرها المطر ، أو هما حلم يقظة يحيط بالديار الآفلة .
وإن الدمن ترزق بكل أنواع المطر الطيبة المثمرة دفعة واحدة مما يؤكد فكرة الدعاء أو الحلم لأن ذلك لا يحدث فى الواقع : وهذه هى الأمطار .
(١) مرابيع النجوم + ودق .
(٢) والودق = جود + رهام .
(٣) و (الجود + الرهام) = أمطار ليلية (هكذا أمطار الشتاء) + أمطار صباحية (هكذا أمطار الربيع + أمطار مسائية (هكذا أمطار الصيف) .
إن الدمن ترزق بأوائل مطر الربيع وتمطرها السحائب الراعدة الكثيرة المطر من الجود والرهام تلك السحائب الليلية والصباحية والمسائية أو الشتوية والربيعية والصيفية .
ونتيجة ذلك تعلو فروع الأيهقان وتزدهر الحياة النباتية ومعها الحياة الحيوانية حيث تلد الظباء والنعام حيث يظهر ذلك عند مدخل الوادى أى أن مظاهر الحياة تستقبلنا عند دخولنا الوادى إلى الدمن بعد أن عادت إليها الحياة .

(٧) وَالعِينُ سَاكِنَةٌ عَلَى أَطْلائِهَا عُوذًا تَأَجَّلُ بِالفَضَاءِ بِهَامُهَا

(٨) وَجَلاَ السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلاَمُهَا

(٩) أَوْ رَجْعُ وَاشِمَةٍ أُسِفَّ نَؤُورُهَا كِفَفًا تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وِشَامُهَا

العين : الأبقار الوحشية ذات العيون الواسعة وفى بعض الروايات يقرأ هذا البيت : «والوحش ساكنة . . .» . ساكنة : آمنة مراعية .

أطلاء : جمع طلا ، ويطلق على ولد الوحش فى شهره الأول .

عوذا : جمع عائذ . ويريد بها حديث النتاج من البقر الوحشى .

تأجل : تجتمع قطعانا قطعانا .

بهامها : جمع بهمة . وهى ولد الضأن ، وتطلق هنا على الأطلاء .

جلا : كشف وصقل . زبر : جمع زبور ، وهو الكتاب .

متونها : نصوصها . تجد : تجدد .

رجع : تجديد . واشمة : السيدة المحترفة القيام بالوشم .

أسف : نثر وذر .

النؤور : الهباء المتراكم فى دخان السراج ، ويوضع فوق جرح الموشوم .

كففا : ذرات فى دوائر . تعرض : تعرج وتراوح بين اليمين واليسار .

الوشام : النقش المعروف على جلد الإنسان .

. . . وكما أطفلت الظباء والنعام بالجلهتين راحت العين ترعى أبناءها فى أيام الولادة الأولى آمنة ، تلك الأولاد المجتمعة قطعانا قطعانا .

ورحلت السيول عن الطلول بعد أن كشفتها وبينت معالمها ورسمت فيها صورة الحياة السابقة من نبات وحيوان وكأن تلك السيول فى رحيلها وكشفها عن الطلول أقلام تجدد كتابة نصوص كتب قد اختفت حروفها ، أو كأنها واشمة تجدد وشما زال بما تنثر من ذرات النؤور فى دوائر تتلوى وتتعرج راسمة الوشم .

(١٠) فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وكيف سؤالنا صُمًّا خَوَالِدَ ما يَبِينُ كَلاَمُهَا

(١١) عريت وكان بِهَا الجميعُ فَأَبْكَرُوا منها وغودر نُؤْيُهَا وثُمَامُهَا

(١٢) شَاقَتْكَ ظَعْنُ الحَيِّ حِينَ تَحَمَّلُوا فَتَكَنَّسُوا قُطُنًا تَصِرُّ خِيَامُهَا

صما : أحجارا صماء . خوالد : صامتة .

عريت : خلت من الحياة . أبكروا : رحلوا مبكرين .
نؤى : نهير يحفر حول البئر لينصب إليه الماء من البئر .
ثمام : نوع من الشجر لسد الشقوق التى تحدث فى جدران البيت وهو رخو .
ظُعُن : الإبل الحاملة للهوادج التى ترحل فيها النساء أو النساء الراحلات أنفسهن .
تحملوا : استعدوا للرحيل .
تكنسوا : دخلوا الكناس وهو بيت الغزال ، وهو هنا يشبه دخول النساء الهوادج بدخول الغزلان لبيوتها .
قُطُن : جمع قطين وهو الجماعة وقد تشير الكلمة لنوع من النسيج القطنى .

لعلنا الآن فى هذه المعلقة الرابعة ندرك أن الأطلال رمز للماضى يحاول الشاعر أن يعيد صورته فى واقعية ، نتبينها من العجز عن الاقتراب ـ فى هذه الإعادة أو الإحياء إلا من آخر لحظة عاشها الشاعر فى ذلك الماضى ، لكن الشاعر لا يستسلم لذلك العجز فيحاول أن يركز اللحظات السابقة بشكل أو بآخر ، فالشاعر يحدد مكان ذلك الماضى ثم يبعث آثار الحياة فى هذا المكان (البيت ١ ـ ٣ عند امرئ القيس) أو يحدد المكان تحديد باقى الوشم فى ظاهر اليد تقريبًا له واندماجا معه (البيت (١) فى معلقة طرفة) أو يفعل الأمرين معا (البيت ١ ـ ٣ عند زهير ، والبيت ١ـ٩ فى معلقة لبيد هذه) ويقف باكيا من ذكرى ذلك الماضى الذى هو حبيب ومنزل عند امرئ القيس فى أول بيت بل فى أول كلمة ، ويصبح الوقوف هذا أول شغيرة تستوعب ما حدث .

أما عند طرفة فيصبح الوقوف فى البيت الثانى كأن الذكرى فاجأته أولاً فوقف عندها بعكس امرئ القيس الذى اعتسف الذكرى ووقف واستوقف لإعادتها حية ولهذا تتكرر عنده شعيرة الوقوف بعد أن نجح فى خلق الذكرى من جديد (البيت رقم ٥)بينما يقف زهير ـ مثله مثل لبيد ـ (دون أن يستوقف مثلما فعل امرؤ القيس وطرفة) فى البيت الرابع وقوفًا يتوسط حدث إعادة الذكرى بعد أن يعيد إليها الحياة ، وذلك من أجل ذكر تفصيلات ومعالم : حددها امرؤ القيس بين الوقوفين ، وتجاهلها تمامًا طرفة قبل وبعد الوقوف ، وجاء بها هنا زهير نتيجة للوقوف الذى صار تعرفًا واكتشافًا .

ماذا فعل لبيد؟ كما قلنا وقف بعد أن فاجأته الذكرى شاحبة قد عفت كل معالمها لكنها تبدو مثل شىء برىء متأبد غير معروف بين الغول والرجام تظهر معالمه شيئا فشيئا مع المطر والسيول .

والوقوف هنا (عند لبيد) للسؤال ، بينما كان للحزن عند امرئ القيس وطرفة وللتعرف

عند زهير. وفى جميع الحالات الوقوف إجلال وهرب من الواقع يثبِّت الزمان ليرى - على صفحة الحاضر - الماضى.

كذلك هو محاولة ناجحة لتركيز الماضى البعيد فى صور عاجلة تنتهى بشىء مشترك فى المعلقات الأربعة، هذا الشىء هو مشهد رحيل الأحبة عن ديارهم أو هو اللحظة الأخيرة (من الماضى) التى تحول بعدها إلى طلل أو إلى ذكرى يلجأ الشاعر إلى إحيائها فى هذه المعلقات جميعًا.

من ثم، يقف لبيد يسأل الأطلال (الماضى) مندهشًا من سؤاله صخورًا (أخذ من اسم الصخور الصم أى التى لا يظهر كلامها (مثلما لا تسمعه) وعدم الإجابة هو صدمة تشد العين للعمل عندما عجز اللسان والأذن، فترى الأحبة راحلين عرى منهم الحى عند خروجهم مبكرين تاركين وراءهم النؤى رمزًا للظمأ لأن النؤى يحجز الماء، والثمام رمزًا للظل لإحساس الشاعر بالحبيبة رغم رحيلها والنؤى يمثل الهجر والثمام يمثل ما قبل الهجر.

***

إن كل ما سبق (من البيت (١) حتى البيت (١١) ليس إلا الشوق استدعى آخر لحظة من الماضى عندما تحملوا (رحلوا) مختفين بجمالهن الشارد فى الهوادج اختفاء الغزلان فى الكناس، تلك الهوادج التى صارت سكنا لهن من القطن يشبه الخيام التى تصر عندما تحرك أعمدتها وقماشها الرياح، صريرا حزينًا باكيًا.

(١٣) من كل محفوف يُظِلُّ عِصِيَّهُ زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وقِرَامُهَا

(١٤) زُجَلاً كَأَنَّ نِعَاجَ تُوضِحَ فَوْقَهَا وظِبَاءَ وَجْرَةَ عُطَّفًا أَرْءَامُهَا

(١٥) حُفِزَتْ وَزَايَلَهَا السَّرَابُ كَأَنَّهَا أَجْزَاعُ بِيشَةَ أَثْلُهَا ورِضَامُهَا[1]

محفوف : هودج حفت (أحاطت) به الزينة والأقمشة والحراس.

عصيه : الخشبات المتعامدة والمرتبطة ببعضها التى يتشكل منها هيكل الهودج.

الزوج : هو الصنف من كل شىء، ويراد به نوع من القماش يصنع منه هكيل الهودج.

الكلة : هى الستارة الرقيقة تحيط بالمرأة داخل الهودج.

---

(١) ويروى : حزيت وزايلها . . .

القرام : هو فرش المقعد الذى تجلس عليه المرأة فى الهودج . وواضح من النص أن القرام يتصل بالكلة ويكملها وذلك فى قوله «كلة وقرامها» . زجلا : جماعات .
نعاج : إناث البَقر الوحشى . توضح ووجرة : موضعان .
عطفا : متعاطفة (مع) . أرءامها : جمع رئم وهو الغزال الأبيض .
حفزت : دفعت إلى السير السريع وسيقت . زايلها : ميزها وخيلها للرائى .
السراب : لمعان نتيجة انعكاس أشعة الشمس فوق الأرض فى خطوط كثيرة الانكسار . وهو لمعان يسبق السائر مهما جريت نحوه جرى أمامك لتظل المسافة بينك وبينه ثابتة ، وأكثر ساعات ظهوره منتصف النهار . أجزاع : جمع جزع أى منعطف الوادى .
بيشة : . . . . . واد بعينه . أثلها : نوع من الشجر تختص به .
رضامها : الصخور العظام يجتمع بعضها إلى بعض فى هذا الوادى .

. . . تلك الظعن فى هوادجها المختلفة ـ من كل نوع من الهودج بكلة وقرام أزواجا أزواجا ـ تمضى فى جماعات كأنها أبقار توضح أو ظباء وجرة (فى الجمال والرشاقة والشرود والاختفاء) حين تحنو على أبنائها البيض الرامزة للبراءة والنقاء .
وأثناء ذلك يدفعها الحادى والهادى (سائق المؤخرة والمقدمة للقافلة) إلى السير السريع حتى أن السراب خيلها فى مثل منعطفات وادى بيشة بما فيها من أثل ورضام . بمعنى أنها تتراءى على بعد فى لمعان السراب كأنها منعطف واد تكثر به الأشجار والتلال الصخرية .

(١٦) بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارَ وَقَدْ نَأَتْ وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا
(١٧) مُرِّيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدَ وَجَاوَرَتْ أَهْلَ الحِجَازِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا [1]
(١٨) بِمَشَارِقِ الجَبَلَيْنِ أَوْ بِمُحَجَّرٍ فَتَضَمَّنَتْهَا فَرْدَةٌ فَرُخَامُهَا

نوار : اسم حبيبته . نأت : بعدت .
أسبابها : حبالها (الجديدة) .
رمامها : حبالها (القديمة) ويريد بالأسباب والرمام ما استجد وما قدم من صلة بالحبيبة .
مُرِّيَّة : صفة لنوار تنسبها لقومها بنى مرة . فَيد : اسم موضع بعينه يبعد عن الحجاز .
مرامها : طلبها والسعى لرؤيتها .
الجبلين : يريد بهما جبلى طىء وهما جبل سلمى وجبل أجأ .

(١) وتروى الشطرة الثانية : (أهل الجبال فأين . . .)

المحجر : جبل استخدمت حجارته للبناء . تضمنتها : ضمتها .
فردة : اسم أرض بعينها . رُخَامها : رخام جبل قريب من أرض فردة .
وليس كل ما سبق إلا ذكرى نوار بعد أن بعدت وانقطعت الصلة بها سواء الصلة الجديدة أو القديمة .
بابتعادها صارتُ مريَّة تنتمى إلى أهلها ولا تنتمى إلىَّ فهى حيث يوجد أهلها بفيد أو بقرب الحجاز وربما هى فى مشارق الجبلين أو بجبل محجر أو لعلها فى أرض فردة بجبلها رخام ، فأين مرامها وكيف السعى إلى رؤيتها وطلبها ؟!

(١٩) فَصَوَائِقٌ إِنْ أَيْمَنَتْ فَمَظَنَّـــــــــةٌ فِيهَا وحَافُ الْقَهْرِ أَوْ طِلْخَامُهَا
(٢٠) فَاقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعرَّضَ وَصْلُـــــهُ وَلَشَرُّ وَاصِلِ خُلَّةٍ صَرَّامُهَا[1]
(٢١) وَاحْبُ الْمُجَامِلَ بِالْجَزِيلِ وَصَرْمُهُ بَاقٍ إِذَا ظَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُهَا
(٢٢) بِطَلِيحِ أَسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّـــــــةً مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا

صوائق : اسم موضع .
أيمنت : دخلت اليمن ، وقد يكون معناها : أن اتجهت يمينا .
وحاف : جمع وحفة ، وهى الجبل الصغير .
القهر : اسم موضع به تلك الوحاف .
طلخامها : اسم جبل مضاف للضمير «ها» الذى يعود على القهر ويصبح «وحاف القهر أو طَلخامها» بمعنى : جبال القهر الصغيرة أو جبل القهر الكبير «طلخام» .
لبانة : حاجة ويريد بها : الأمل فى . . تعرض : تبدل ولم يستقم على طريقة واحدة .
خلة : المودة الكبيرة أو الحب الذى يتخلل البدن .
أحْبُ : فعل أمر من حبا يحبو أى منح ووهب . صرام قطاع ، وهى عكس واصل .
المجامل : الذى يظهر حبه ويجامل بهذا الحب أى المصانع والمنافق . الجزيل : الكثير .
صرمه : هجره . ضلعت : اعوجت وانحرفت (الأمور) عن المودة .

(*) تروى الشطرة الثانية :
ولخير واصل خلة صرامها
أى من يحسن الوصل يحسن الهجر

زاغ : مال . قوامها : عمادها أو ما يقوم به الشيء .
طليح أسفار : ناقة أضعفتها الأسفار . أحنق : ضمر وذبل .
صلبها : ظهرها .
. . . فلا تدرى أين هى : أبصوائق أو بوحاف القهر أو طلخامها ؟ ذلك كله ضرب من الظنون .
ما دام الأمر كذلك ولا سبيل للوصول إلى الحبيب فليس إلا قطع الأمل فيمن لا يستقيم وصله ولا ينتظم على طريقة . وإن شر خليل من يقطع وده بعد أن وصله .
ما العمل إذن ؟ امنح من يظهر لك حبه الكثير من حبك دون أن تثق فى هذا الحب بل استبق فى نفسك نية الهجر حتى إذا حدث وضلعت الأمور وزاغ قوامها فعليك بناقة مدربة على الأسفار حتى أن الأسفار أتعبتها ولم تترك منها إلا بقية ظهر معها ظهرها ضامرا مع سنامها .

(٢٣) وإِذَا تَغَالَى لَحْمُهَا وَتَحَسَّرَتْ وَتَقَطَّعَتْ بَعْدَ الْكَلَالِ خِدَامُهَا
(٢٤) فَلَهَا هِبَابٌ فِى الزِّمَامِ كَأَنَّهَا صَهْبَاءُ خَفَّ مَعَ الْجَنُوبِ جِهَامُهَا
(٢٥) أَوْ مُلْمِعٍ وَسَقَتْ لأَحْقَبَ لاَحَهُ طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا
(٢٦) يَعْلُو بِهَا حَدَبَ الإِكَامِ مُسَحَّجٌ قَدْ رَابَهُ عِصْيَانُهَا وَوِحَامُهَا

تغالى : ارتفع إلى مواضع بروز العظام أى زال عما سواها لضمورها .
تحسرت : صارت حسيرة أى خالية من اللحم معيبة بسبب ذلك .
خدام : جمع خَدَمَة . وهى سيور تعقد فى الأرساغ ثم تشد إليها النعال التى توضع للإبل . ويقال للخلخال خدمة وموضع الخدام من أرساغ الإبل هو موضع الخلاخيل من المرأة .
هِبَاب : سرعة ونشاط فى الحركة .
زمام : الحبل الذى تقيد أو تقاد به الناقة . صَهباء : يقصد سحابة حمراء .
الجهام : السحاب الذى أراق ماءه فدفعته ـ وقد خف ـ رياح الجنوب .
ملمع : أتان ملمع أى استبان حملها . وسقت : حملت .
أحقب : حمار وحشى أحقب أى فى وركيه أو فى خاصرتيه بياض .
لاحه : غَيَّرَهُ . طرد : مطاردة .
كِدامها : عضها . حَدَب : قمة أو ما ارتفع من الأرض .

الإكام : صغار الجبال ومفردها أكمة . مسحج : معضض أى به عض كثير .
الوَحام : هو الوحم أثناء الحمل أو هو الاشتهاء .
. . . تلك الناقة إذا قل لحمها من الضمور وتمزق نعلها حتى الخدام من فرط السفر تزداد نشاطا حتى أنها تهب فى الزمام مثل السحابة الحمراء أو السحابة الجهام الخفيفة السريعة الحركة . أو مثل أتان (أنثى الحمار الوحشى) ظهر عليها الحمل من حمار وحشى به بياض فى وركيه (لعل ذلك رمز لفحولة الحمار أو جماله) قد غير من شكله مطاردة الحمر الأخرى له مع ضربها وعضها له لنيل أتانه لكنه يهرب بالأتان ويعلو بها قمم الجبال قد امتلأ جسمه بالعض من ناحية وامتلأت نفسه بالريب والشكوك من ناحية أخرى بسبب عصيان الأتان له الناجم عن الوحم دليلا على تقدم أشهر الحمل ، أو لعل الوحم (بمعنى اشتهاء الأتان لحمارها) بتناقضه مع العصيان هو ما أرابه لأن الأتان تشتهيه فيقبل عليها فتمتنع عنه عَادَةَ الحيوانات أثناء الحمل فيمتلىء بالشك .

(٢٧) بِأَحِزَّةِ الثَّلْبُوتِ يَرْبَأُ فَوْقَهَا ... قَفْرَ المَرَاقِبِ، خَوْفُهَا أَرْآمُهَا
(٢٨) حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةً ... جَزَءًا فَطَالَ صِيَامُهُ وَصِيَامُهَا
(٢٩) رَجَعَا بِأَمْرِهِمَا إِلَى ذِي مِرَّةٍ ... حَصِدٍ وَنُجْحُ صَرِيمَةٍ إِبْرَامُهَا

أحزة : جمع حزيز ، ما ارتفع من الأرض . الثلبوت : اسم لعين ماء لبنى ذبيان .
يَربَأ : يعلو (فوقها) ويختبىء من الرماة والصيادين . قفر : القفر : الخالى .
المراقب : أماكن المراقبة . أرآمها : أحجار تتخذ أعلاما تدل فى الصحراء .
سلخ : أمضى . جمادى : من أسماء الشتاء بسبب جمود الماء فيه .
ستة : ستة أشهر . جزءا : اكتفاء بالرطب عن الماء .
مرة : قوة ، وذو المرة : الرأى القوى الحاسم . حصد : حكيم محكم .
نُجح : نجاح . صريمة : العزيمة ، أو النية المعقودة . إبرام : إحكامها .
. . . ويكمن فوق مرتفعات الثلبوت فى مراقب خالية خوف ظهورَ الخطرَ من خلف الأعلام (الصخور) . . . وظلا على ذلك حتى أمضيا الشتاء بشهوره الستة لا يشربان الماء صياما إجباريا اكتفاء بالنبات الرطب . . . وعند انتهاء الشتاء رجعا بأمرهما إلى رأى قوى حاسم محكم . لأن نجاح أى نية يعتمد على إحكام تنفيذها .

(٣٠) وَرَمَى دَوَابِرَهَا السَّفَا وَتَهَيَّجَتْ رِيحُ الْمَصَايِفِ سَوْمُهَا وَسِهَامُهَا

(٣١) فَتَنَازَعَا سَبِطا يَطِيرُ ظِلاَلُهُ كَدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُهَا

(٣٢) مَشْمُولَةٍ غُلِثَتْ بِنَابِتِ عَرْفَجٍ كَدُخَانِ نَارٍ سَاطِعٍ أَسْنَامُهَا

ورمى : يريد : وقد رمى . . . عندما (رجعا إلى ذى مرة . .) .

دوابر : مآخر الحوافر ومقادمها .

السفا : نوع دقيق من الشوك مثل شوك السنابل والسفا أيضا التراب الدقيق يتعلق بغزارة فى الهواء .

المصايف : جمع مصيف ، ويريد به هنا الأماكن التى اشتد بها الصيف .

سوم : مرور ، والكلمة ترتبط بالعذاب والتعذيب .

سهامها : أثرها من حرارة وغبار وقذى .

تنازعا : تبادلا فيما يشبه النزاع . سبطا : غبارا ممتدا .

يطير ظلاله : ينتشر غطاءً فى الجو يحجب الشمس فلا يبقى إلا ظلاله القاسية .

دخان مشعلة : يريد : دخان نار مشعلة . والمشعلة النار الكبيرة الموقدة .

يشب : يوقد وينفخ فيه ليزداد اشتعالا . ضرامها : الضرام مادق من الحطب .

مشمولة : نالت ريح الشمال . غُلِثَتْ : خلطت .

النابت : الغض الطرى . عَرْفَج : نوع من الشجر .

ساطع : لامع مرتفع . أسنامها : جمع سنام (الجمل) .

. . . فى نفس الوقت كان الصيف قد بدأ يلقى عليهما بالسفا ، وبالرياح التى تسومها العذاب بمرورها وبحرارتها وغبارها . فظهر الغبار الممتد مثل ملاءة يتنازعانها وقد حَجَبَتْ ضَوْءَ الشمس وانتشرت كأنها دخان نار عظيمة توقد وتزداد اشتعالا ، بهبوب ريح الشمال عليها وقد حملت تلك الريح معها غض العرفج فظهرت فى هبوبها على النار نارا أخرى ذات رؤوس عاليةَ ساطعة مثل سنام يحيط به دخان .

(٣٣) فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَّدَتْ أَقْدَامُهَا

(٣٤) فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِراً قُلاَّمُهَا

(٣٥) مَحْفُوفَةً وَسْطَ الْيَرَاعِ يُظِلُّهَا مِنْهُ مُصَرَّعُ غَابَةٍ وَقِيَامُهَا

(٣٦) أَفَتِلْكَ أَمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصُّوارِ قِوَامُهَا

عرَّدت : تأخَّرَتْ فى جبن .
توسطا : تحركا فى وسط الطريق .
عرض : ناحية .
السرى : الصغير من الأنهار .
صدعا : شقا (طريقا وسط النبت) .
مسجورة : أرض ذات عين مسجورة أى كثيفة النبت والماء .
قُلاَّم : نبت يكثر حول الأنهار خاصة ، وقيل القصب البرى .
محفوفة : محاطة (بالنبات) .
اليراع : القصب .
المصرَّع : المائل كأن الرياح تصرعه وتميله .
غابة : أجمة ، وكل قصب مجتمع يقال عنه : غابة .
قيامها : ما لم يكن مائلا من الغابة أو ما قام من المصرع .
أفتلك : يريد : أفتلك الأتان أفضل فى قربها من ناقتى أم بقرة وحشية . . .
وحشية : بقرة وحشية .
مسبوعة : أكل السبع ولدها .
خذلت : تخلت عن ولدها (هذا) أو تخلت عن القطيع أو عن فحلها ، والمراد هنا المعنى الأول .
هادية الصوار : الصوار : القطيع ، وهادية الصوار من يتقدم القطيع ، والقوافل لها حاد يتأخر وهاد يتقدم ، وهادية الصوار قد يكون ذكرا أو أنثى .
قوامها : أى ما تقوم به أمورها ويريد هنا : مرشدها وموجه حركتها .
فى ظل تلك الظروف انطلق الحمار الوحشى وقد قدَّم الأتان عليه ، وكانت تلك عادته عندما تجبن الأتان وتؤخر أقدامها فى إباء عن الحركة .
من ثم شقا طريقهما فى أرض بها عين مسجورة من ناحية النهير الذى ينبع من العين ، القلام يحفها ويظلها غابة من القصب البرى الذى تعابثه الرياح فيظهر بين مائل مصرع وقائم معتدل .
تلك الأتان أشبه بناقتى أم هذه البقرة الوحشية التى أكل السبع ولدها بعد أن خذلت هذا الولد ذاهبة مع القطيع تلعب وتعبث خلف هاديته ؟!

(٣٧) خَنْسَاءُ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ عُرْضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُغَامُهَا

(٣٨) لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبُ لاَ يُمَنَّ طَعَامُهَا

(٣٩) صَادَفْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصَبْنَهَا إِنَّ الْمَنَايَا لاَ تَطِيشُ سِهَامُهَا

(٤٠) بَاتَتْ وَأَسْبَلَ وَاكِفٌ مِنْ دِيمَةٍ يَرْوِي الْخَمَائِلَ دَائِمًا تَسْجَامُهَا

خنساء : من خَنَسَ يَخْنِسُ ويَخْنُسُ أى يتأخر وينقبض ويغيب .

الفرير : ولد البقرة الوحشية .

لم يرم : مضارع مجزوم من الفعل رام ، يريم ومعناه : برح ، يبرح .

عرض : ناحية .

الشقائق : جمع شقيقة وهى الرملة المستطيلة ذات النبت تقع بين رملتين .

طوف : تَجَوَّل .

بغام : صوت رقيق .

معفر : لولدها المعفر بأديم الأرض .

قهد : أبيض .

شلو : بقية الجسد .

غُبْس : وحوش (كلاب أو ذئاب) رمادية اللون .

كواسب : ضامنة لطعامها كاسبة لصيدها .

يمن : يقطع .

غرة : غفلة .

المنايا : جمع منية ، وهى الموت .

تطيش : تخيب .

أسبل : سال .

واكف : قطر .

ديمة : مطرة تدوم .

خمائل : جمع خميلة وهى الرملة ذات النبت والشجر .

تسجام : انصباب .

تلك البقرة المنقبضة النفس التى تخلفت عن القطيع بسبب ضياع ابنها فلم تبرح الشقائق تطوف بها باحثة عن ابنها تصدر أصوات نداء عليه فلعله يوجد مختفيا بين نباتات الشقائق . . . ولكنها تنادى على جثة لفرير أبيض قد صار معفرًا لم يبق من جسمه إلا بقية تتنازعها الوحوش الرمادية اللون الكاسرة التى لا ينقطع طعامها بسبب فرط توحشها . لقد صادفت تلك الوحوش غفلة الأم ـ أثناء لعبها مع القطيع ـ فأصبنها فى ابنها ، وإذا جاء القضاء فلا مفر لأن سهام الموت لا تخطىء .

فى هذا الجو اليائس للأم باتت وسال قطر المطر المستمر يروى الخمائل انصبابه ، إن المطر شعار للحزن وانعكاس لدموع الأم . . . .

(٤١) يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٌ فِى لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

(٤٢) تَجْتَافُ أَصْلاً قَالِصًا مُتَنَبِّذًا بِعُجُوبِ أَنْقَاءٍ يَمِيلُ هُيَامُهَا

(٤٣) وتُضيءُ فِي وَجْـهِ الظَّلامِ مُنِيـــرَةً كَـجُـمَـانَةِ الْبَـحْـــرِيِّ سُلَّ نِظَامُـهَـا

(٤٤) حَتَّى إِذا انْحَسَرَ الظَّلامُ وَأَسْفَرَتْ بَكَـرَتْ تَـــــزِلُّ عَنِ الثَّـرَى أَزْلامُهَـا

طريقة متنها : خط على الظهر من الذنب إلى العنق .

متواتر : مطر متواتر أى غزير مجتمع مستمر . كفر : غطى .

تجتاف : تدخل ، وتروى : تجتاب بمعنى تقطع أو تلبس .

أصلا : يريد أصل شجرة أى جذع شجرة . قالصا : مرتفع متقلص ومنقبض .

متنبذا : متنحيا متفرقا .

عجوب : جمع عَجْب ، وهو أصل الذنب ، ويريد به هنا مؤخرة الأنقاء .

والأنقاء : جمع نقا وهو الكثيب الرملى وسميت بالأنقاء لنقاء رملها وتساوى حباته .

هيامها : رملها اللين المستمر الانهيال .

جمانة البحرى : اللؤلؤة صغيرة أو كبيرة وأمثال ذلك من الدر وغيره ، والبحرى يراد به الغواص الذى يجلب اللؤلؤة من البحر .

سل نظامها : قطع خيطها فى العقد الذى انتظمت فيه .

انحسر : زال . أسفر : أضاء وانكشف .

بكرت : غدت مبكرة . تزل : تنزلق .

الثرى : التراب الندى .

أزلامها : أقدامها ، والأزلام هى قداح الميسر استعارها للأقدام هنا لأن حركتها هنا خطيرة تعتمد فيها نجاتها على الحظ . ونتذكر هنا رمى القداح حول مصير عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم .

. . . ذلك المطر يعلو ظهرها من أوله إلى آخره فى تواتر مستمر بليلة ليلاء مظلمة غطى نجومها غمام أسود . حاولت البقرة دخول ثقب فى أصل شجرة يشبه البقرة فى مأساتها فهو متقلص متنح متفرق الفروع بسبب البرد والمطر ، ذلك فى مؤخرة مجموعة كثبان تنهال رمالها وتنهار . ومع ذلك فإن جذوة الحياة فى البقرة تضىء فى وجه الظلام وقد انطلقت تتحرك فى خط متعرج فبدت مثل حبات من لؤلؤ ثمين أحضره غواص وقد تناثر على الأرض . وظلت هكذا حتى انحسر الظلام عن الكون وأضاءت الدنيا ، فانبعثت تجرى فى هذا الصباح المبكر تنزلق فوق الثرى أقدامها متعرضة للتعثر والخطر كأن أقدامها أقداح ميسر تحت رحمة الحظ .

(٤٥) عَلِهَتْ تَرَدَّدُ فِي نِهَاءِ صَعَائِدٍ سَبْعًا تُؤَامًا كَامِلاً أَيَّامُهَا(*)

(٤٦) حَتَّى إِذَا يَئِسَتْ وَأَسْحَقَ حَالِقٌ لَمْ يُبْلِهِ إِرْضَاعُهَا وَفِطَامُهَا

(٤٧) فَتَوَجَّسَتْ رِزَّ الأَنِيسِ فَرَاعَهَا عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ وَالأَنِيسُ سَقَامُهَا

(٤٨) فَغَدَتْ كِلاَ الْفَرْجَيْنِ تَحْسَبُ أَنَّهُ مَوْلَى الْمَخَافَةِ خَلْفُهَا وَأَمَامُهَا

عَلِهَتْ : اشتد جزعها ، والعَلَه والوله والهلع واحد .

تردد : تروى : تبلد وتلدد وفى جميع الأحوال حذفت تاء المضارعة فهى : تتردد وتتبلد وتتلدد ومعناها جميعا تتحير بين كل اتجاه .

نهاء : جمع نهى ونهى وكلاهما بمعنى الحاجز الذى ينهى الماء ويمعنه من الفيضان .

صعائد : اسم مكان بعينه .

سبعا تؤاما : سبع أيام بلياليها ، كأنه أراد سبع أيام تؤام (توائم لسبع ليال) .

أسحق : أخلق وقدم مثل الثوب يخلق ويقدم .

حالق : الضرع والملآن باللبن .

لم يبله : لم يسحقه أو يخلقه أو يجعله يبلى ويجف .

توجست : تسمعت وحدست . رز الأنيس : صوت الانسان .

راعها : أخافها . عن ظهر غيب : دون أن تراه .

الأنيس : الإنسان (ويراد به هنا الصياد) . سقامها : داؤها .

فغدت : تروى أيضا : فعدت أى جرت .

الفرج : المتسع من الأرض ، ويعنى بالفرجين عن خلف وأمام فى مساحة شاسعة .

مولى المخافة : أولى بأن يخاف منه .

. . . امتلأت - فى ذلك الموقف - بالهلع متحيرة حول سدود ماء صعائد سبع أيام بلياليها كاملة حتى إذا يئست من النجاة ومن ابنها وصار ضرعها جافا بعد امتلاء ، ذابلا بعد نضارة

---

(١) رواه الأصمعى :

علهت تَلَدَّدُ فى شَقَائِقِ عَالِجٍ سِتًا به حَتَّى وَفَتْ أَيَّامُهَا

وقد تروى الشطرة الأولى بقليل من الاختلاف :

علقت تَبَلَّل . . .

وتبلل : تستمر على نفس الحال ، أو تغنى بكاء على ابنها وحزنا .

دون أن ينجف أو يذبل من رضاع الابن وفطامه بل من البؤس الذى تتعرض له . . .
وحتى إذا حدست وتسمعت صوت إنسان ، امتلأت بالخوف من المجهول لأن الإنسان الصياد هو عدوها وهلاكها . فصارت تجرى تخشى من الخطر يلاحقها من خلفها خشيتها منه يقابلها من أمام كأنها تسعى إليه حثيثا .

(٤٩) حَتَّى إِذا يَئِسَ الرُّمَاةُ وَأَرْسَلُوا ... غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلاً أَعْصَامُهَا
(٥٠) فَلَحِقْنَ وَاعْتَكَرَتْ لَهَا مَدْرِيَّةٌ ... كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدُّهَا وَتَمَامُهَا
(٥١) لِتَذُودَهُنَّ وَأَيْقَنَتْ إِنْ لَمْ تَذُدْ ... أَنْ قَدْ أَحَمَّ مِنَ الْحُتُوفِ حِمَامُهَا
(٥٢) فَتَقَصَّدَتْ مِنْهَا كَسَابٍ فَضُرِّجَتْ ... بِدَمٍ وَغُودِرَ فِى الْمَكَرِّ سُخَامُهَا

غُضْفًا : الغضف الكلاب المسترخية الآذان وهذا من علامات حدة السمع والتفوق بين كلاب الصيد .
دواجن : السلالة المتعودة على الصيد الضارية تخضع لأصحابها فى الحل والترحال .
قافلا أعصامها : جافة أعصامها ، والأعصام جمع عصام وهو الحبل الذى تعلق فيه القربه لا تغادر صاحبها ، ويريد به هنا قيد فى عنق هذه الكلاب يشدها إلى أصحابها مهما ابتعدت وراء الصيد .
فلحقن : يريد أدركت الكلابُ البقرةَ .
اعتكرت : تفرغت للكلاب مهاجمة . مَدْرِيَّة : أطراف قرون حادة .
سمهرية : رماح سمهرية ، منسوبة لسَمْهَر وهو صانع رماح مشهور .
حدها وتمامها : فى حدتها واستقامتها الممتدة الطول .
تذودهن : تدفعها عنها . تذد : مجزوم تذود ، أى تدفع العدو .
أُحِمّ : كتب عليها .
الحتوف : جمع حتف وهو الهلاك والموت .
حمامها : موتها . تقصدت : قتلت .
كساب : اسم علم للكلبة (يبنى أحيانا على الكسرة أسماء الأعلام المؤنثة على وزن فعال) . ضرجت : صبغت باللون الأحمر من الدم .
المكر : مكان الكر والفر والعراك . سخام : اسم علم لكلبة .

. . . لم يكن خوف البقرة فى غير موضعه . . . إذ طاردها الرماة بسهامهم حتى يئسوا من نيلها فأرسلوا خلفها كلابا ماهرة لحقت بها . . . لكن البقرة تصدت للكلاب بأطراف قرونها التى تشبه الرماح السمهرية لتدفع تلك الكلاب عنها لأنها علمت أنها إن لم تفعل ذلك فقد حان موتها ، وتقتل من الكلاب كساب وسخام فى جو معركة حقيقية دموية تنتهى بجثث ودماء .

(٥٣) فَبِتلْكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَى ... وَاجْتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا

(٥٤) أَقْضِى اللُّبَانَةَ لاَ أُفَرِّطُ رِيبَةً ... أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةٍ لُوَّامُهَا

(٥٥) أَوَ لَمْ تَكُنْ تَدْرِى نَوَارُ بِأَنَّنِى ... وَصَّالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَذَّامُهَا

(٥٦) تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا ... أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

(٥٧) بَلْ أَنْتِ لا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ ... طَلْقٍ لَذِيذٍ لَهْوُهَا وَنَدَامُهَا

فبتلك : أى بتلك الناقة التى قد تشبه كل ما سبق .

اللوامع : صفحات السراب اللوامع . اجتاب : لبس (انظر معجم البيت ٤٢) .

أردية : جمع رداء ، وهو الثوب .

إكام : جمع أكمة ، وهى الجبل الصغير (انظر شرح البيت ٢٦) .

اللبانة : الحاجة (انظر شرح البيت ٢٠) . لا أفرط ريبة : لا أقصر فى شىء .

حبائل : جمع حُبالة ، وهى مستعارة للعهد والمودة .

جذام : عكس وصال . الحِمَام : الموت (انظر شرح البيت ٥١) .

ليلة طلق : ساكنة لا حر فيها ولا برد . ندام : جمع نديم .

بتلك الناقة أقضى وأصل إلى لبانتى ومرادى لا أقصر فى شىء فلا أترك لأحد فرصة اللوم إلا اذا كان اللوَّامُ يلومون لغرض فى نفسهم . . .

هذا يتم عندما تشتد الحرارة فلا تُحْتَمَل فترقص لوامع السراب بالضحى وتلبس التلال والجبال السراب أثوابا لها . . .

. . . تلك هى الناقة التى حملتنى فى رحلة يتحقق فيها مرادى وتظهر بها مروءتى . . . فى مواقف كثيرة . . . ألم تكن الحبيبة نوار تدرى أننى قادر على هذا : من وصل عهود وقطعها فأنا وصال جذام ، وأنا ـ كذلك ـ تراك أمكنة إذا لم أرْضَ عنها وإذا أتركها فالموت

هو الحكم بينى وبين من فيها . . . لا . . . لا يبدو يا نوار أنك تدرين عنى شيئا . . . فأنت لا تدرين كم من ليلة جعلها اللهو اللذيذ والندامى ليلة طلقا لا حرور فيها ولا برود .

(٥٨) قَدْ بِتُّ سَامِرَهَا وَغَايَةَ تَاجِرٍ ... وَافَيْتُ إِذْ رُفِعَتْ وَعَزَّ مُدَامُهَا

(٥٩) أُغْلِي السِّبَاءَ بِكُلِّ أَدْكَنَ عَاتِقٍ ... أَوْ جَوْنَةٍ قُدِحَتْ وَفُضَّ خِتَامُهَا

(٦٠) وَصَبُوحِ صَافِيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ ... بِمُوَتَّرٍ تَأْتَالُهُ إِبْهَامُهَا

(٦١) بَادَرْتُ حَاجَتَهَا الدَّجَاجَ بِسُحْرَةٍ ... لأُعَلَّ مِنْهَا حِينَ هَبَّ نِيَامُهَا

سامر : من السمر ، وهو حديث الليل ، وقد يطلق على اللهو بالليل «سامرا» .

غاية تاجر : راية حانة يرفعها تاجر الخمر ليعرف مكان حانته .

عز مدامها : أى صار غاليا عزيزا . السباء : شراء الخمر .

أدكن : زق شديد الدكنة (غامق) . عاتق : معتق .

جونة : خابية سوداء أى وعاء أسود لتخزين الخمر .

قدحت : غرف منها بالمقدحة وهى مغرفة الخمر .

فض : كسر ونزع . ختامها : قفلها المعلم المميز .

الصبوح : خمر الصباح (فى مقابل الغبوق : خمر المساء) .

جذب : عزف . كرينة : الجارية العوادة .

موتر : العود أو أى آلة موسيقية ذات أوتار .

تأتاله : بضم اللام تعنى تصلح من شأنه للعزف ، وتروى بفتح اللام بمعنى تتأتى له : أى تتهيأ له فى ترسل وتمهل .

السحرة : وقت السحر فى آخر الليل . أعُلَّ : أشربُ مرة بعد الأخرى .

. . . قد قضيت تلك الليلة أتمتع بسامرها ، وحاناتها التى وافيتها (وصلت إليها) وقد رفعت رايتها لنداء الشاربين وعز مدامها (خمرها) للانتقاء من بين هؤلاء الشاربين من يفهم قيمة الخمر ويُضَحِّى بالكثير من أجلها . لذا أدفع الكثير فى شراء الخمر ، أنالها من زقاق داكنة (الدكنة هنا تدل على القدم) معتقة ، أو من جونة (سوداء أيضا دلالة على التعتيق) غرف منها وفض ختامها بالشرب منها لأول مرة .

. . . وانني لا اكتفى بخمر الليل بل بالصبوح الصافية فى ظل أنغام جميلة من جارية

جميلة تعابث عودها فى دلال وتمهل . . . وهكذا أنافس الديوك (أراد بالدجاج ما يؤذن فى الصباح أى الديوك) فى نداءاتها الصباحية وأسبقها لأشرب من تلك الصبوح المرة بعد الأخرى .

(٦٢) وَغَـدَاةِ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقَـــــرَّةٍ ... قَـدْ أَصْبَـحَتْ بِيَـدِ الشَّمَـالِ زِمَـامُهَـا

(٦٣) وَلَقَـدْ حَـمَـيْتُ الْحَيَّ تَحْـمِلُ شِكَّتِي ... فُـرْطٌ وِشَـاحِي إِذْ غَـدَوْتُ لِجَـامُـهَـا

(٦٤) فَـعَـلَوْتُ مُـرْتَقِـبًـا عَـلَى ذِي هَبْـوَةٍ ... حَـرِجٍ إِلَى أَعْـلاَمِـــهِنَّ قَـتَـامُـهَـا

(٦٥) حَـتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَـافِـــرٍ ... وَأَجَنَّ عَـوْرَاتِ الثُّـغُـورِ ظَلاَمُـهَـا

(٦٦) أَسْـهَلْتُ وَانْتَـصَبَتْ كَجِـذْعِ مُنِيفَـةٍ ... جَـرْدَاءَ يَحْصُـــرُ دُونَهَـا جُرَّامُـهَـا

غداة ريح : فى صباح باكر . ذى رياح باردة عاصفة .

وزعت : كففت (شرها) . قرة : برد .

زمام : قيد ولجام . شكتى : سلاحى .

فرط : فرس متقدم . مرتقبا : مستطلعا ، وذو هبوة : جبل حوله غبرة .

حرج : ضيق كثيف . الأعلام : الجبال والرايات .

القتام : الغبار .

ألقت يدا : فاعل القت هو الشمس لم تذكر لدلالة السياق عليها ، وألقت يدا يعنى استسلمت وغربت . كافر : يريد به الليل لأنه يكفر (يغطى) الكون بالظلام .

أجن : ستر .

عورات الثغور : مواضع الخوف من العدو .

أسهلت : نزلت السهل . وانتصبت : ظهرت (الفرس) منتصبة قائمة .

جذع منيفة : جذع نخلة . جرداء : قليلة السعف والليف .

يحصر : يعجز ويتعب (دون الوصول إليها) .

الجرام : الجناة لثمرها .

وكما أبرز فى اللهو والشرب (يانوار) فإننى فى وقت الشدة أكفف شر الرياح العاصفة التى تهب فى الصباح على الفقراء ، كما أكفف خطر البرد عنهم إذا صار لجام البرد بيد رياح الشمال الباردة (البيت فيه تقديم وتأخير : قد وزعت غداة ريح وقرة . . . الخ) .

أيضا أحمى الحى ، وسلاحى على فرس متقدمة ، تصير تلك الفرس وشاحى إذ صرت لجامها ، (انمزاح بين الفارس والفرس فهى حزامه وهو لجامها) وفى تلك الحال علوت أرقب الأعداء فوق جبل محاط بالغبار ، صعوده حرج يقود غباره إلى مضارب الأعداء وجبالهم .

وعندما جاء الليل ، وستر الظلام عورات الثغور نزلت إلى السهل ملتصقا بفرس سريعة تبدو قائمة مثل نخلة يعجز الجناة عن إدراك ثمرها .

(٦٧) رَفَّعْتُهَا طَرْدَ النَّعَامِ وَشَلَّهُ ... حَتَّى إِذَا سَخِنَتْ وَخَفَّ عِظَامُهَا

(٦٨) قَلِقَتْ رِحَالَتُهَا وَأَسْبَلَ نَحْرُهَا ... وَابْتَلَّ مِنْ زَبَدِ الْحَمِيمِ حِزَامُهَا

(٦٩) تَرْقَى وَتَطْعَنُ فِى الْعَنَانِ وَتَنْتَحِى ... وِرْدَ الْحَمَامَةِ إِذْ أَجَدَّ حَمَامُهَا

(٧٠) وَكَثِيرَةٍ غُرَبَاؤُهَا مَجْهُولَةٍ ... تُرْجَى نَوَافِلُهَا وَيُخْشَى ذَامُهَا

(٧١) غُلْبٌ تَشَذَّرُ بِالذُّحُولِ كَأَنَّهَا ... جِنُّ الْبَدِيِّ رَوَاسِيًا أَقْدَامُهَا

رفعتها : رفعت من سرعتها جدا .

طرد (النعام) وشله : الطرد والشل اسمان لجرى النعام ثانيهما أسرع من الأول لذلك تروى أيضا «طرد النعام وفوقه» .

سخنت : (تعود على الجرى) وارتفعت سرعتها .

خف عظامها : صارت خفيفة بسبب السرعة (يحدث هذا للسيارة الحديثة يصير هيكلها خفيفا أثناء السير لدرجة لا تصدق) .

قلقت (رحالتها) : اضطرب رحلها الخفيف (المصنوع من جاد الغنم) .

أسيل نحرها : أمطر العرق (من نحرها) .

زبد الحميم : زبد العرق .

ترقى : تشب وترتفع بعنقها .

تنتحى : تعتمد فى سيرها على سرعة تشبه ورد الحمامة .

ورد : انطلاق الحمامة نحو الماء .

الحمامة : ذات الطوق من الطير وجمعها حمام .

أجد حمامها : ـ انكمش (من العطش) حمامها أى اتجهت مجموعة الحمام إلى الماء فتبعتها مسرعة حتى لا تتأخر عنها .

وكثيرة غرباؤها : ودار يكثر بها الغرباء من الضيوف الذين يتلقون مراسيم الضيافة ، دون

أن يعرف بعضهم بعضا كأنهم فى مكان مجهول الأهل والسكان .

ترجى : تطلب . نوافلها : خيرها .

ذامها : ذمها وغضبها . غلب : غلاظ الأعناق دلالة على الشراسة .

تشذر : تتهدد . الذحول : الثارات .

البدى : موضع . رواسيا أقدامها : ثابتة الأقدام .

. . . تلك الفرس رَفَعْتُ سرعتَها إلى سرعة النعام طرداً ثم شَلاً إلى أن خفت وازدادت سرعتها حتى اضطربت رحالتها وسال العرق من نحرها ، وبلل حزامها .

هذا أمر يتصل بدفاعى عن الأهل ، أما دارى فهى تغص دائما بالضيوف الذين يجهل بعضهم بعضا ، إنها الدار التى يرجى خيرها ويخشى غضبها وذمها ، مع أن ضيوفها تبدو عليهم الخشونة يتهدد بعضهم بعضا بالثارات والأحقاد تشاجرا على عطائها كأنهم جن البدى فى ثبات القدم والثقة فى عطاء الدار .

(٧٢) أَنْكَرْتُ بَاطِلَهَا وَبُؤْتُ بِحَقِّهَا عِنْدِى وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَىَّ كِرَامُهَا

(٧٣) وَجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا

(٧٤) أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ بَذَلَتْ لِجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا

(٧٥) فَالضَّيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَنَّمَا هَبَطَا تَبَالَةَ مُخْصِبًا أَهْضَامُهَا

(٧٦) تَأْوِى إِلَىَ الأَطْنَابِ كُلُّ رَذِيَّةٍ مِثْلُ الْبَلِيَّةِ قَالِصٌ أَهْدَامُهَا

بؤت : من باء ، يبوء ومعناه : أقر (بالشىء) أو اعترف (به) .

الجزور : ما ذبح من إبل وغيرها .

أيسار : أقداح ، ويريد بجزور أيسار : إبل ممتازة من الإبل التى تعد للقداح فى الميسر .

أعلامها : علاماتها وملامحها . العاقر : التى لا تلد فتصبح قوية سمينة .

مطفل : التى لها أولاد ، فتصبح غالية نفيسة . لحامها : لحمها .

الجنيب : الغريب . تبالة : واد مخصب فى اليمن .

أهضامها : سهولها المستوية .

الأطناب : حبال الخيام أو الدار التى يلجأ إليها الفقراء .

رذية : امرأة ضعيفة هزيلة ، وأصل المعنى الناقة العاجزة عن السفر لفرط هزالها .

البلية : الناقة التى تربط على قبر صاحبها حتى تموت .

قالص : منكمش منقبض قصير . أهدامها : جمع هدمة وهى ما خلق من الثياب .

. . . تلك الدار ينتفى عنى باطلها ويعود إلىَّ خيرها ولم يفخر علىَّ كرامها فأنا أعلاها نسبا

. . . وفيها أنحر الإبل الجيدة التى لا تقدم إلا للميسر عند إقفاله بأقداح تتشابه فى ميزاتها تشابه النوق التى أذبحها . . . قد استدعيت تلك الأقداح - لخيال من يرى الذبح - عندما أحضرت من الإبل - خاصة - العاقر والمطفل لأبذل لحمها لجميع الجيران دون تفرقة بينهم

. . . ولهذا فإن الضيفَ والجارَ الغَريبَ - الذى يعانى الغربة لفقره - يشبهان فيما يلقيان من إكرام من هبط سهول وادى تبالة الخصب . . . ولهذا تأوى إلى هذه الدار - ضمن من يأوى - الجارة الوحيدة البائسة التى عاشت وحدها عرضة للموت مثل البلية ، فى ثيابها الرثة التى لا تكاد تستر بدنها .

(٧٧) وَيُكَلِّلُونَ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ خُلُجًا تُمَدُّ شَوَارِعًا أَيْتَامُهَا

(٧٨) إِنَّا إِذَا الْتَقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ مِنَّا لِزَازُ عَظِيمَةٍ جَشَّامُهَا

(٧٩) ومُقَسِّمٌ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا وَمُغَذْمِرٌ لِحُقُوقِهَا هَضَّامُهَا

(٨٠) فَضْلاً، وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا

(٨١) مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

يكلل : يرص اللحم بعضه إلى جوار بعض على الجفان (أوانى الطعام) .

تناوحت : قابل بعضها بعضا فى صوت مثل النواح (يكنى عن الشتاء وبرده) .

خلجا : جمع خليج . تمد : تنشر وتزداد .

شوارعا : شروعا فى الأكل أو صفوفا تشكل جداولا يخوض فيها الأيتام .

المجامع : وتروى المحافل ، ولعله يريد الأقوام الغرباء الذين أشار إليهم فى داره (وكثيرة غرباؤها) .

لزاز : من يعتمد عليه دائما ، ولذا سميت الخشبة التى يشد بها الباب «لزاز» .

(لزاز) عظيمة : من يعتمد عليه دائما فى الأمور العظيمة .

جَشَّامها : من يتحمل ثقلها . مُغَذمر : يظلم البعض لحساب البعض الآخر .

هضامها : مضيع (للحق) .

السنة : طريقا واضحا محدد المعالم ، ويريد قوانين تنظم الحياة .
الإمام : المثل والأسوة .
. . ويقوم (الخدم) بإعداد اللحم ورصه على الجفان إذا عز الطعام والدفء عند تناوح رياح الشتاء وتصبح الجفان مثل الخلجان يخوص فيها الأيتام التهاما .
من ثم فعند التقاء الأقوام (وقد يريد بالتقاء المجامع : الحرب) نتصدى (أنا وقومى) للأمور العظيمة حاملين لأثقالها ، نقسم الغنائم ونعطى العشيرة حقها مغذمرين هضامين لحقوقنا من أجل حقوق تلك العشيرة . . . فضلا منا (كلمة : فضلا فى أول البيت ٨٠ تكمل الجملة التى تشكل الشطرة الثانية من البيت ٧٩) فمنا الكرام الذين يعينون على الكرم ذوى سماحة نكسب الرغائب (أى نحقق ما نريد) ونغنمها . إننا من معشر سنت لهم آباؤهم (طريق الفضل) لأن لكل قوم سنة ومثل أعلى يحتذونه .
والشاعر يريد بالأبيات ٧٨ ـ ٨٠ ما يعبر عنه عنترة فى بيت واحد هو :

يخبرك من شهد الوقعية أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم

لكن لبيد ينسب لقومه ما ينسبه عنترة لنفسه .

(٨٢) لاَ يَطْبَعُونَ وَلاَ يَبُورُ فَعَالُهُمْ إِذَ لاَ يَمِيلُ مَعَ الْهَوَى أَحْلامُهَا
(٨٣) فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ المليكُ فإنما قَسَمَ الخلائقَ بَيْنَنا عَلاّمُها
(٨٤) وإِذَا الأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فِى مَعْشَرٍ أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظِّنَا قَسَّامُهَا
(٨٥) فَبَنَى لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمْكُهُ فَسَمَا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغُلامُهَا
(٨٦) وَهُمُ السُّعَاةُ إِذَا الْعَشِيرةُ أُفْظِعَتْ وَهُمُ فَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا
(٨٧) وَهُمُ رَبِيعٌ لِلْمُجَاوِرِ فِيهِمُ وَالْمُرْمِلاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا

يطبع : يدنس ويتلطخ عرضه ، وتروى : لا يطمعون وتحمل نفس المعنى .
يبور : يهلك . أحلام : عقول .
علامها : قسامها ، المليك : يريد : الله . سمك : ارتفاع .
السعاة : من يسعى فى الصلح والإصلاح متحملا تكاليف ذلك .
أفظعت : حل بها أمر فظيع ، ويروى : أقطعت أى فنى ذادها ، أو مالها من إبل وغيره وعموما يحمل معنى أفظعت .

المرملات : الأرامل .

. . . يواصل الفخر بقومه . . فهم لا يلطخون عرضهم ولا تضيع أعمالهم الطيبة لأن عقولهم لا تميل مع الهوى . . .

فأقنع بما قسم الله (من جاه وعزّ لنا ودون ذلك لغيرنا) لأن الأخلاق قد قسمها الله بين الناس هكذا لحكمة عنده . . . فالأمانة لو قسمت (أى قسنّا نظام تقسيمها) بين الناس لوجدت أن الله أعطانا أوفر حظ منها لأن الله بنى لنا بيتا رفيع المقام عاليا سما لمكانته منا الكبير والصغير . . . لأن هؤلاء جميعا هم السعاة للصلح والإصلاح اذا أصاب القبيلة مكروه ، وهم الفوارس الذين يدافعون عنها ، وهم الحكام الذين يُحكِّمهم الناس فى أمورهم وهم الربيع الذى يبعث الحياة والنضارة (مثلما يفعل الربيع فى الطبيعة) لمن عاش فى جوارهم وللأرامل إذا طال عامهم من المعاناة .

(٨٨) وهم العَشِيرَةُ أَنْ يُبَطِّئَ حاسِدٌ أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ العَدُوِّ لِئَامُهَا

وهم العشيرة المحبوبة المرجوة إلا أن يبطىء حاسد فى الشهادة بذلك أو أن يميل لئيم بحكمه مع أعدائنا .

(١) إن لقصيدة تشكل وحدة دالة ينطلق مدلولها فى وحدته من تشكيل فنى يعتمد على مجموعة من المفاصل العضوية اللفظية التى تخلق تفاعلا مستمرا بين أجزاء القصيدة وتشد أولها نحو آخرها كما تدفع بآخرها يذوب فى أولها. اننا أمام مفاصل تقوم بتحريك العناصر البنائية (البوانى ـ جمع بانية وسنطلقها على العناصر البنائية ـ راجع لسان العرب) حركة بالغة التعقيد متعددة الاتجاهات. وسنكشف عن أبرز البوانى القائمة كمفاصل عضوية لتحريك بقية البوانى، تلك الحركة المشار إليها على هيئة فواصل موسيقية بين كل فاصل وآخر بانية لغوية دالة تعمل كمفصل عضوى يحرك باقى البوانى ويذيبها فى بعضها ويدفع بالتجانس والوحدة إلى كل الفواصل الموسيقية.

الفاصل الأول: من البيت ١ ـ ٩، والبانية المفصلية الرابطة لأجزائه لفظة (الديار) التى عفت وصارت طللا تتحدث عنه هذه الأبيات حديثًا مكثفًا يبرز رمزية الديار، إنها الحبيبة تتحول لذكرى تضئ تارة وتظلم أخرى، لكن لقطة الديار كرمز للحبيبة يتسع بتجربة الحب إلى آفاق إنسانية شاملة ورؤية متميزة لعالم الشاعر وواقعه، ويعين الديار كبانية وكرمز لمحبوبة معًا ضمير التأنيث المتصل (ها) الذى يسيطر على فراغ القصيدة ووحداتها الإيقاعية، ويعود فى هذا الفاصل على الديار ظاهراً ويصلح أن يعود على الحبيبة، وإن كان لا يفعل ذلك بشكل مباشر.

الفاصل الثانى: قصير جدًا، ويشمل البيتين ١٠، ١١ والبانية المفصلية هنا: «فوقفت أسألها». إن ذات الشاعر تظهر فجأة وبقوة ظهوراً بارزًا فى تاء الفاعل فى «وقفت» ومع «أنا» المستترة وجوبًا فى «أسألها» استتارا يكشف عن نفسه فى همزة المضارعة بل وفى الهمزة الأخرى التى تتوسط الفعل «أسأل». من ثم لا يختفى من «أنا» إلا «نا» وهى ضمير جماعة المتكلمين المتصل القابل للرفع والنصب والجر أى الشمولى التمثيل للجماعة ويرجح ذلك بروز هذا الضمير بوضوح فى الجملة التالية مباشرة «وكيف سؤالنا» فى معرض تحدث الشاعر عن نفسه المستوعبة لشعائر الجماعة المنفذة لها فى عادة الوقوف على الديار، ومع نفس الفعل (أسأل)، وهنا تبرز على استحياء الروح الجماعية القبلية التى

ينتمى إليها الشاعر، وبروز الذات هنا بهدف مزجها فى «الديار» يحقق اندماج الفرد فى الجماعة والعاشق فى الحبيبة ويشد هذا الفاصل للفاصل السابق عن طريق ضمير التأنيث العائد على الديار والمتصل بالجملة أسأل بما تحتوى من «أنا» وبما تشير لنفس الضمير المؤنث (ها) مقدرا مع الفعل وقفت (بها)، والتقدير هنا يقرر «الباء» فاصلا للإشارة لفاصل الزمان بين الوقوف وبين بداية فناء الديار بمغادرتها كما سنرى فى البيت (١١)، ويظهر فى هذا البيت ضمير جماعة الغائبين الذين هم الحبيبة والجماعة الغائبين فى رمز الديار، ومقابل واو الجماعة تتكرر (ها) ثلاث مرات، وتختفى فى (هى) المستترة فى «عريت» التى تحمل تاء التأنيث.

الفاصل الثالث: ويشمل الأبيات ١٢ ـ ١٥، والبانية المفصلية هنا هى الشطرة الأولى من البيت ١٢ (شاقتك ظعن الحى حين تحملوا) أننا أمام انقلاب الأنا فى (أسألها» إلى «أنت» فى كاف (شاقتك) ويبدأ الحوار فى النص جاعلا من هذا الفاصل إجابة للسؤال غير مباشرة. إن ذكر الديار والسؤال ليس إلا الشوق ويتدفق الشوق إلى الوراء محتضنًا كل الأبيات السابقة ومفسرًا الأبيات القادمة وممزقًا حبل الصمت للصم الخوالد مبينًا كلامها وتختفى الديار بعد أن تلونت بالشوق وتبرز الحيوية على استحياء فى لحظة الرحيل تتدفق من الماضى البعيد إلى الماضى الأقرب فيما وراء وبعد لحظة الرحيل، ولكن الحبيبة جماعة «ظعن الحى»، وهى جماعة أرحب من مجموعة النساء «ظعن» لأنها سيشار إليها بواو الغائبين التى تصلح للمذكر فقط، أو للمذكر إذا تواجد مع الجماعة إناث، والواو هنا تدعم مفهوم الواو كما اشرنا إليه فى الفاصل السابق وكما اغترب الأحبة وغابوا غابت «الأنا» واغتراب الشاعر عن نفسه وغاب فى حاضر هو «أنت» المتمثل كما قلنا فى الكاف، وتظهر «ها» هنا فى روى البيت (١٢) نفسه، وأيضًا البيت (١٣) مشيرة للهوادج فى مرحلة انتقال بين إشارتها للديار المختفية، وإشارتها للحبيبة متمثلة فى الظعن فى الأبيات التالية، والهوادج دار راحلة وفى نفس الوقت خباء للحبيبة، وكما ربطت هذه البانية الأبيات التى سبقتهما بالتى لحقتها ربطت الحاضر بالماضى فى أبعد لحظة ذات مغزى فيه وذلك فى قوله (شاقتك. . حين تحملوا) فالشوق فى اللحظة الراهنة، والتحمل أبعد لحظة يتذكرها من الماضى وعفاء الديار، والوقوف بها وسؤالها بينهما، والهبوط من الحاضر إلى أعمق نقطة فى الماضى فى هذه البانية هبوط مفاجئ يتناقض مع بطء حركة العفاء والوقوف والسؤال فى اتجاهها من نقط أقرب فى الماضى نحو الحاضر

المتمثل فى (شاقتك» كما يتناقض مع بطء حركة الانحدار من أعمق نقطة فى الماضى نحو الحاضر نفسه فى الأبيات التالية وحتى آخر القصيدة، تلك الحركة اللولبية المتعرجة بين الحين والحين.

الفاصل الرابع: يشمل البيت ١٦ ـ ٢١، والبانية المفصلية هنا هى (بل ما تذكر من نوار وقد نأت). إن أهم عامل فاعل فى هذه البانية هو (بل) التى تشبه جذوة نار سحرية تبخر ما قبلها من أبيات وتمحوها لأن (بل) إضراب ومحو لما قبلها لصالح ما بعدها، إن بل تنفخ فى (ما تذكر من نوار وقد نأت) كل بخار الأبيات السابقة ويستمر «أنا» الشاعر مغتربًا فى «أنت» التى تميل للاختفاء فى استتارها وجوبًا فى «تذكر» وبروزها مرة واحدة فقط بعد ذلك فى «منك مرامها» لتستتر من جديد وجوبا فى «أقطع ، أحب»، وتتحول (ها) من دلالتها الرمزية إلى الدلالة المباشرة على نوار وغيرالمباشرة على بقية مرموز الرمز أى على الديار ـ الظعن ـ الجماعة، ومع الدلالة المباشرة على نوار ـ وظهور اسمها منيرًا ومزهرًا عطرًا لأول مرة تتوزع نوار تلك على مساحة شاسعة من الأرض، إنها طيف يملأ كل مكان ولا يدرك فى أى مكان أنها سراب الأمل الذى دفع من أجله الشاعر الجزيل دون جدوى إلى أن تضطرب الأمور «إذا ضلعت وزاع قوامها» لتشير (ها) فى آخر هذا الفاصل (البيت ٢١) إلى أمور الحب والحياة كمرحلة انتقال نحو الفاصل القادم.

الفاصل الخامس: تَثْرَى الموسيقى هنا وينقسم هذا الفاصل إلى مجموعة فواصل جزئية يطول بها إلى آخر القصيدة، والبانية العضوية هى حرف الجر «بـ» فى (بطليح). إن الشاعر يوجز قصة حبه، وقصة الحياة فى الصحراء تحت خطر سيف الطبيعية والمجتمع القبلى فى البيت (٢١) الذى لا يكتمل إلا بالبيت (٢٢) اننا سنكتب البيتين لنبرز ذلك:

واحب المجامل بالكثير وصرمه (باق فى نفسك حتى إذا اضطربت الأمور وزاع قوامها تم هذا الصرم) بطليح أسفار...

إن الحياة لا أمان لها تحت سوط الجفاف تارة والمشاكل القبلية تارة أخرى، وهذا ينعكس على كل شىء حتى الحب، ولذا فلتبق فى نفسك القدرة على الرحيل إذا طار الأمان وتبخر الحب بناقة طليح أسفار. وحتى تتعرض لضرورة الرحيل عليك أن تعيش الحياة وافر العطاء وافر الأخذ ولو كان الأمر مجرد مجاملة تخلو من الصدق. إن هذا ينطبق تمامًا على قول طرفة (وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء...). والباء عنده مع الناقة تقوم بنفس الوظيفة المفصلية بل الأمر نفسه عند امرئ القيس وإن حل الجواد (بمنجرد) محل الناقة وبقيت الباء.

والناقة أو الجواد رمز لإنسان الصحراء يتوحد فيهما وينفصل عنهما ليرى نفسه وحياته (بـ ـها)عن بعد، إن تلك الناقة إذا ساء حالها . . لا تضعف ولا تستكين بل لها (هباب . . في الزمام).

ينتهى الجزء الأول من هذا الفاصل هنا عند هذا القدر من البيت ٢٤ ليبدأ الجزء الثانى وينتهى سريعًا فى بقية هذا البيت نفسه. إن الناقة فى هزالها ـ لما تعرضت من سوء ـ لازالت قوية مقاومة (كأنها صهباء . . جهامها). إن البانية هنا كأنها . . وترتفع هنا من الأرض إلى السماء والهزال ليس إلا ماء خصوبة أراقته السحابة المقاتلة الدامية (الصهباء) لتخفف وتسهل حركتها وتصفو. إن البدوى يحول الانكسار والخطر إلى خصوبة وقدرة على الحركة مشوبة بالدم.

ويبدأ الجزء الثالث: من هذا الفاصل فى البيت ٢٦ حتى البيت ٣٥. والبانية المفصلية هنا (أو) إنها أداة عاطفة تعطف ما بعدها على ما قبلها وتتبعه له ثم تفصله عما قبلها بل وتدرج ما قبلها فيها بطرح فكرة الاختيار التى تشير إليها. إن الناقة إن لم تشبه الصهباء فستشبه الأتان الملمع. وربما يمكننا القول إنها إذا ظهرت مرة مثل السحابة ستظهر المرة الثانية مثل الأتان الملمع. وقصة الأتان مع حمارها الوحشى قصة حب دامية فيها صراع دام بين الذكور فى مجتمع الصحراء . . مجتمع الرجال! ولكنه صراع من أجل الأنثى، والرجال لا يتصارعون من أجل الأنثى فحسب ولكن الأنثى يمكن أن تكون رمزًا للمصالح العميقة والمعقدة المتقاتل عليها. ولا انتصار فى هذا الصراع ولا نجاة إلا النجاة الفردية التى تقوم على الهرب. من هنا كما عادت (ها) فى الأبيات (٢٢ ـ ٢٤) على الناقة مباشرة مع اختفاء (أنا وأنت وهى) فإنها تعود فى البيت (٢٤) فى آخره على السحابة ثم على الأتان فى الأبيات (٢٥ ـ ٣٥) أيضًا مع اختفاء الذات (أنا ـ أنت) أو الحبيبة (هى)، واختفاء الذات والحبيبة دليل على غيبتهما فى الناقة ثم غيبة الناقة بما تحمل من مدلول فى الأتان مع اتساع المدلول بظهور الحمر الوحشية والصراع والدم. والنجاة الفردية القائمة على الهرب مبرر لتشبيه الناقة بالأتان فى قصتها العنيفة التى انتهت ـ فيما يشبه الحلم ـ نهاية سعيدة راقصة فى الأبيات (٣٣ ـ ٣٥).

ويبدأ الجزء الرابع فى البيت (٣٦) ويمتد حتى البيت (٥٢)، والبانية المفصلية هنا هى (أفتلك أم وحشية) حيث تشير (أفتلك) للأتان فى وجه مفاضلة حائرة فى صيغة سؤال لاهث سريع لا نضع علامة الاستفهام إلا فى آخر بيت من الجزء، والمفاضلة بينهما وبين بقرة وحشية أكل السبع ولدها: أيهما أشبه بناقته بل بحياته وحياة كل بدوى؟ إننا أمام قصة

دموية أخرى تدخل فيها البقرة فى صراع مع قوى الهلاك فى الصحراء، الوحوش، الإنسان، الطبيعة. نجاة فردية أيضًا لكنها مأساوية فقد خسرت البقرة ولدها كما خسر الشاعر نوار. والسبب فى هذه المأساوية الانتماء للجماعة (وهادية الصوار قوامها). لقد كسبت الأتان حبيبها لأنه هرب من الجماعة، وهو مكسب يتخلى عن الجماعة ويختار عرض الفلا من أجل حب سيكون تحت رحمة الطبيعة ونجاحه أقرب إلى الحلم الجميل بل ولعله المستحيل التحقيق.

ويبدأ الجزء الخامس مع البيت (٥٣) وينتهى بنهاية القصيدة، إن الجزء الرابع قد استمرت (الذات أو المحبوبة) غائبة فيه وكانت (ها) تعود على البقرة الوحشية المسبوعة التى غابت فيها الناقة بتجلياتها السحابية الحمراء والأتانية الملمع الحامل المليئة بالخصوبة (التى أجهضت فى هذه البقرة الوحشية بفقدان ولدها وبقيت فيها ـ على الرغم من ذلك ـ إمكانية الخصوبة مثلما حدث للسحابة) فى هذا الجزء الخامس تظهر الذات فجأة فى صيغة الأنا، وتعود معها نوار للظهور بشخمها ولحمها.

(أو لم تكن تدرى نوار. .) ثم بصيغة هامة وهى (بل أنتِ. .). إن استعمال (أنتِ) مسبوقة بـ (أنا) مباشرة فى (بأننى وصال عقد حبائل جذامها) يعود بنا لفهم الحوار فى أول القصيدة بين (أنا ـ أنت).

إن الذات الشاعرة التى انقسمت إلى (أنا ـ أنتِ) تلون الآن الضميرين بحقيقتين هما (العاشق ـ المعشوقة) فى إطارها الاجتماعى.

نعود لأول هذا الجزء: فبتلك. . (البيت ٥٣). . أقضى اللبانة (البيت ٥٤). تلك تعود على الناقة بعد استيعابها لعناصر الصراع الاجتماعى فى الواقع الشامل. وتسبق تلك الباء لتنطبق تماما على «بطليح أسفار» ويحل السراب محل الأسفار إشارة للمستحيل الذى يقتحمه الشاعر (أقضى اللبانة لا أفرط ريبة). كأنما الناقة تمثل التجسيم الملموس لواقع غارق فى ضياع المستحيل وقسوته. وتترجم الناقة إلى: (أنا): (أو لم تكن تدرى نوار بأننى) إن سبق (أنا) المتمثلة فى (أننى) بالباء و(أن) التأكدية يعمق دلالة الباء كقنطرة تكنية تنقل الرمز إلى المرموز كما نقلت المرموز إلى الرمز وذلك عبر مساحات زمنية.

ثم إلى (أنتِ) فى البيت ٥٧ (بل أنتِ) وهنا (بل) تمسح ما قبلها وتصبه فيما بعدها. إن القصيدة كلها حتى البيت ٥٦ تنصب فى لفظة (أنتِ)، وتتحول كلها إلى مناجاة إلى نوار التى لم تكن تدرى بحقيقة حبيبها. وحقيقته حقيقة اجتماعية، إذ يتصاعد حديثه عن نفسه إلى حديث عن عشيرته وأعدائها أو من تصرف مثل العدو ممن أوقع بينه وبين نوار أو لعله

يعنى نوار نفسها :

وهم العشيرة أن يبطئ حاسد أو أن يميل مع العدو لئامها

***

(٢) يظهر التضمين فى القصيدة. والتضمين بلاغيًا هو أن يكتمل البيت لفظًا ومعنى بالبيت الذى يليه. وانتشار التضمين فى القصيدة يؤكد الظاهرة السابقة ويضيف مفاصل عضوية داخل بوانى القصيدة ومن أمثله التضمين (٢١، ٢٢، ٢٨، ٥٣، ٥٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٩، ٨٠).

***

(٣) عندما يكون الفاعل والمفعول به اسمين ظاهرين يفصل المفعول الفاعل عن فعله ويتقدمه. وهذا له دلالة خطيرة حيث إن الثبات فى الواقع يجعل الفاعل يغترب عن فعله بل ويضيف دور الفاعل ويصبح الواقع هو الحقيقة الكبرى التى تتقدم فى أهميته على من صنعها. وهذا يعكس أيضاً فعل الحب فى القصيدة، الذى هو بالضرورة فعل مشاركة وتفاعل. إننا نرى الحب هنا من جانب واحد سلبى. فالعاشق فى ناحية والمعشوقة تائهة بين فيد والحجاز ومشارق الجلين أو محجر أو فردة أو اليمن.. إلخ. أيضًا المعشوقة لا تدرك حقيقة عاشقها (أو لم تكن تدرى.. بل أنت لا تدرين)، إنها تفتقد الوعى الذى يمتلكه العاشق مما يجعل فعل الحب فعلا فرديا سلبيا من جانب واحد مفتقداً لأهم عناصره، وهو عنصر المشاركة والجماعية والوعى، يضيف إلى ذلك مطاردة المجتمع. إن ذلك جميعه يبرز فى البيت (٢٥)، (٢٦):

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها

يعلو بها حدب الإكام مُسَحَّج قد رابه عصيانها ووحامُهـــا

فنحن أمام مطاردة اجتماعية وعصيان فردى يعرض العاشق للاغتراب عن محبوبته داخل مجتمعه ولا سبيل إلا الهرب. وهذا سبيل يعزل الإنسان عن مجتمعه كما ينعزل الفاعل عن فعله فى القصيدة. إن العناصر الدالة فى القصيدة تطرح مدلولها على المستوى النحوى التركيبى بشكل لا مجال لتفصيله هنا.

لكن ينبغى أن نضم أمام الباحثين مجموعة صيغ تركيبية للجمل الفعلية وموقف كل عنصر فى الجملة من العناصر الأخرى كى يكون موضع دراسة :

١ـ الصيغة الأكثر شيوعًا: هى صيغة فصل الفاعل الظاهر عن فعله بالمفعول، وهى الحالة التى تحدثنا عنها فيما قبل ونضرب أمثلة (ضمن الوحى سلامها (٣) فلم يرم عرض

الشقائق طوفها (٣٧)، كفر النجوم غمامها (٤١) اجتاب أردية السراب إكامها، يعتلق بعض النفوس حمامها (٥٦)، أجن عورات الثغور ظلامها (٦٥) ويدخل فى هذه الصيغة الفصل بين الفاعل وفعله بالجار والمجرور أو أى فاصل آخر لأن حكم الفاصل هو حكم المفعول تمامًا، وأمثلة ذلك (تأجل ـ بالفضاء ـ بهامها (٧)، تعرض ـ فوقها ـ وشامها (٩) تقطعت ـ بعد الكلال خدامها (٢٣)، خف ـ مع الجنوب ـ جهامها (٢٤) وينضاف لنفس الدلالة تركيب البناء للمجهول (تراجع أمثلة له فى الأبيات ٤، ٩، ١١، ١٥، ٤٣).

٢ ـ صيغة التصاق الفاعل بفعله وهى:

(أ) إما للزوم الفعل: حيث يصير الفاعل مفعولا به يتعرض للسحق والفناء والاضمحلال ومثال ذلك فى البيت (١): عفت الديار. إن التصاق الفعل بالفاعل هنا من الناحية النحوية أدعى لاغتراب الفاعل إلى حد الهلاك والانسحاق لانفصاله عن فعله دلاليًا، حيث إن الفعل لا يصدر عن الفاعل ـ فى الواقع ـ بل عن مجموعة فاعلين لا وجود لهم نحويًا، كان لهم وجود بارز فى الواقع كعوامل هدم وتفريق وطغيان.

(ب) وإما لنفى الواقع: إن نفى الفعل نحويًا لا يعنى عدم وقوعه دلاليًا بل هو يعنى وقوع الفعل من غير الفاعل النحوى أى سلب الفعل من فاعله مثل (ما يبين كلامها (١٠) ومثل (أو لم تكن تدرى نوار (٥٥) وفى الحالتين يبدو عجز الفاعل عن الظهور بشكل حاسم مما يشكك فى أمره.

(جـ) وإما فى حالات نادرة لإبراز قوة الفاعل عندما يكون الفاعل أداة تغيير فى الواقع، وهنا يتميز الفعل والفاعل تميزًا فصلناه فى النقطة التالية (راجع الظاهرة الأسلوبية رقم ٤ الخاصة بمعاملة جمع التكسير معاملة المذكر خلافا للشائع نحويًا).

٣ـ توجد صيغ أخرى نكتفى بالإشارة إليها وهى الصيغ التى يكون فاعلها ضميرًا بارزا متصلاً أو ضميرًا مستترا إما وجوبًا أو جوازًا.

***

(٤) تظهر فى القصيدة مجموعة أفعال لا تعامل جمع التكسير لغير العاقل معاملة المفردة المؤنثة كما هو شائع بل تعامله معاملة جمع المذكر السالم إجلالا لمفرده المذكر وتقديرًا.

والمثلان الواضحان لذلك:

١ـ فعلاً فروع الأيهقان... (البيت ٦).

٢ـ وجلا السيول عن الطلول (البيت ٨).

فمفرد فروع وسيول: فرع وسيل، وهما مذكران وهذه الظاهرة غير مطردة مما يجعل لها دلالة خاصة كلما وردت. وفى الواقع عملية التذكير والتأنيث فى القصيدة يطرح موضوعا هاما للدراسة لعدم اطرادها طبقًا للقواعد النحوية فى كثير من الحالات. إن أبسط أثر لهذا التذبذب بين تذكير المؤنث وتأنيث المذكر هو اثراء الإيقاع وصنع التفاتات كثيرة تصبح بوانى دالة.

***

(٥) شيوع الثنائيات فى القصيدة يطرح موضوعًا جادًا للدراسة. إن الثنائيات تأخذ شكل مفردات:

(أ) تتكامل وتتناقض فى آن (محلها فمقامها، أسبابها ورمامها).

(ب) تتناقض تناقضًا خفيًا كما تتكامل تكامل انتماء مثل.. أثلها ورضامها (١٥) فالأثل شجر فيه حياة والرضام حجر لا حياة فيه وكلاهما عنصر من عناصر تشكيل وادى بيشة.

(جـ) تتنوع وتدعم الدلالة فى شىء من الاشتراك فى النتائج مثل: ضربها وكدامها (٢٥)، عصيانها ووحامها (٢٦)، صيامه وصيامها (٢٨)، سومها وسهامها (٣٠)، طوفها وبغامها (٣٧).

(د) تناقض زمانى أو مكانى له قوة عرفية فى الوجود: حلالها وحرامها (٣)، خلفها وأمامها (٤٨).

(هـ) تكامل شرطى (لهوها وندامها ٥٧). وشرطية التكامل تحمل ضرورة المفارقة. أو تأخذ الثنائيات شكلاً تركيبيًا تتمثل فى أبنية قد تتناقض أو تتكامل أو ترتبط شرطيًا ويمكن للدارس متابعتها فى النص.

وكل تلك الثنائيات تعكس عناصر الصراع فى الواقع الذى يعبر عنه الشاعر، وذلك فى دورانها بين التناقض والوحدة.

***

(٦) هناك ظاهرة صوتية تترتب على الظاهرة السابقة وتدعمها:

إنها بناء المثنى مع دلالة تشير لهيئة لها كيان مفرد حتى لو احتوى هذا الكيان على عنصرين فإنهما لا يشكلان مثنى بقدر ما يشكلان كيانا مفردا مستقلا. والمثل على البناء الصوتى للمثنى دون أى تثنية هو لفظة: (الأيهقان) فى موضع الجر. والمثل على

بناء المثنى ذى الدلالة الفردية ألفاظ مثل (الجلهتين، الجبلين، الفرجين) وهذه الألفاظ تشبه قولنا (المقصان) نريد آلة (المقص).

إن الثنائيات مع تناقضها تتكامل حتى إنها لتشكل كيانا واحدا متوترا يبدو ايقاعيّا فى هذه الأصوات ذات الدلالة الفردية والبناء الثنائى.